دبلوماسية الكوارث وأثرها في العلاقات الدولية: زلزال تركيا أنموذجا

زيد عبد الوهاب الأعظمي

قد تجد الكثير من الدول في تلك الأجواء فرصة سانحة لتعزيز أواصر العلاقات مع تلك البلدان من خلال المبادرات والمساعدات المقدمة، لاسيما الدول التي تعاني من توترات بين الحين والآخر، فربما تصبح تلك الأزمات والكوارث أرضية جيدة للتلاقي على مسرح بعيد نسبيًا عن المسرح السياسي المعقد.

تمر الدول والنظم السياسية بأزمات إنسانية وكوارث طبيعية، تكون ملزمة في ظلها إلى تحرك سريع لإنقاذ الضحايا وعلاج الجرحى وإعادة الإعمار، وتخفيف كافة أشكال الضرر، اجتماعياً واقتصادياً ونفسياً، وغيرها من تداعيات الكوارث والأزمات، فتنشط عدة مصطلحات عقب ظهور الأزمات مثل: دبلوماسية الأزمة، ودبلوماسية الكوارث، دبلوماسية الإغاثة، كسياق مغاير للمصطلحات الدبلوماسية التقليدية المتبعة في العلاقات الدولية ما بين النظم والجماعات والأفراد.

لم تعد النكبات قاصرة على الكوارث الطبيعية، مثل الحرائق والزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف، بل شملت أيضا الانقلابات والحروب الأهلية وانتشار الأوبئة. ولذلك، تنوعت الأنشطة والأعمال التي يمكن أن تقوم بها الدول، والمساعدات التي تقدمها خلال تلك الكوارث، بهدف بناء علاقاتها مع الشعوب التي تكون أكثر حساسية خلال فترات الكوارث.

شهد العالم زيادة في معدل الكوارث الطبيعية، حيث تسارع الدول عادة في إبداء تعاطفها مع الدول المتضررة من تلك الكوارث على اختلافاتها، وخلافاتها، وتقوم بتقديم المساعدات النقدية والعينية وفرق الإغاثة.

يتزامن مع ذلك ظهور عدة مصطلحات تربط ما بين أنواع مختلفة من الدبلوماسية، وبين علاقات الدول وبعضها، سواء تلك التي تربطها ببعضها صراعات وتنافس، أو تحالفات وتكامل.

إن تنامي هذا النوع من الفعاليات الدبلوماسية في وقت الأزمات والكوارث، يتطلب تأهيل خبراء قادرين على إدارة عمليات التخطيط وتوظيف إمكانيات الدولة في تقديم المساعدة للدول المنكوبة، وتسهم في مساعدة المؤسسات على تخفيف الضرر في تداعيات ما بعد الكارثة.

يركز المفهوم الجديد -دبلوماسية الكوارث- في العلاقات الدولية، على كيفية تعامل أو تواصل فاعل الدولة "أ" مع الدولة "ب" أثناء حصول الكارثة أو النكبة، مثل الزلازل والحرائق وانتشار الأوبئة، لتقديم المساعدة والإغاثة الإنسانية، وتقديم الخبرة، والتكنولوجيا التي يمكن أن تقلل من آثار تلك الكارثة، أو تمنع وقوعها أو توقفها.

تعرضت تركيا لزلزال صُنف أنه الأعنف في تاريخها في 6 شباط/فبراير 2023, هزّ 10 محافظات ووصل أثره إلى أغلب دول الجوار التركي، وأشدها في سوريا، ونجم عنه خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، وعلى أثر ذلك ردد وتداول العديد من الباحثين مصطلح "دبلوماسية الكوارث"، وكيف استطاعت تركيا أن تصبح مركز إغاثة عالمي مع العديد من الدول، حتى تلك التي لها خصومة أو برود معها، بسبب خلافات سياسية واستراتيجية في علاقاتها الدبلوماسية مع أنقرة.

قدمت الدول الكبرى والإقليمية بشكل عاجل مساعداتها لتركيا، وفي مقدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا، ودول الاتحاد الأوروبي وعلى رأسها اليونان والسويد، فضلاً عن التضامن والدعم العربي والإقليمي مثل دول الأردن، مصر، الجزائر، وغيرها، من هنا يمكن ملاحظة أثر دبلوماسية الكوارث على علاقات تركيا بدول كانت تعيش حرباً إعلامية مع أنقرة حول ملفات خلافية عدة.

أعلنت وزارة الخارجية التركية أن الوزير مولود جاويش أوغلو أجرى 23 لقاءً وجها لوجه وأكثر من 70 اتصالاً هاتفياً مع مسؤولين رفيعي المستوى زاروا تركيا، واتصلوا للإعراب عن تضامنهم معها. وشملت قائمة الزائرين والمتصلين وزراء خارجية كل من اليونان وأرمينيا ومصر وألمانيا والسويد وإسرائيل والولايات المتحدة. وهي دول لم تكن علاقاتها الثنائية مع تركيا تخلو من المنغصات والخلافات، رغم أن بعضها يرتبط معها بعلاقات تحالف وصداقة.

خفضت "دبلوماسية الكوارث" وحجم المساعدات الإنسانية الدولية المقدمة من دول عدة إلى تركيا، من حدة التوترات والخلافات بين تركيا وقوى دولية وإقليمية، حول ملفات هامة كالعمليات العسكرية في سوريا والعراق، والموقف من الأزمة الأوكرانية الحالية، وتعليق الموافقة على انضمام السويد وفنلندا للناتو، ولكنها بالمقابل لم تجد حلًا للمشكلات الرئيسية العالقة ما بين تركيا وتلك البلدان، كما أن بعض المساعدات الإنسانية التي قُدمت للمنكوبين من جراء الزلزال لا تضاهي المساعدات العسكرية المليارية المقدمة لأوكرانيا في حربها مع روسيا، وهذه مفارقة تم تشخيصها في عديد المقالات والأبحاث.

يمكن وصف المساعدات العربية المالية والعينية والإغاثية المقدمة لتركيا من لدن قطر والسعودية والإمارات الكويت بأنها الأكثر فاعلية واستمرارية عن غيرها من المساعدات ودور شعوب تلك الدول فيها عبر الحملات الشعبية، ذلك لطبيعة العلاقات الجيدة التي تربط أنقرة مع تلك البلدان، وبلا شك كان الموقف القطري لافتا الذي لم يقف عند حد جسور الإمداد الجوي، بل تعداه إلى زيارة أمير قطر المعنوية للرئيس التركي واجتماعهما في اسطنبول لتقديم كامل الدعم قبالة هذه الأزمة الإنسانية.

إن المقاربة الإنسانية لبعض النظم السياسية ذات العلاقة المتوترة مع أنقرة، في مسألة التعاطي مع كارثة الزلزال المدمر في تركيا، فتحت الباب أمام تخفيف التوتر وإنشاء أرضية مشتركة، يمكن من خلالها بدء حوار ومفاوضات حول القضايا الخلافية أو العالقة. على الرغم أن دبلوماسية ما بعد الزلزال لا يمكن أن تكون بديلا عن تسوية القضايا الخلافية، لأنها تحتاج إلى المزيد من الحوارات الفاعلة وتنفيذ المصالح المتبادلة بين الأطراف المختلفة، كما أن زوال تأثير الكارثة الإنسانية سيعني عودة الخلافات السياسية إلى مكانها في سياق العلاقات الدولية والسياسات الخارجية للنظم.

نشاط الدبلوماسية الإنسانية بعد الكوارث ووصول مساعدات وفرق إنقاذ من دول مختلفة إلى المناطق المنكوبة، لا يحدث لأول مرة، ويعد أمرا طبيعيا في العلاقات الدولية. ومن المؤكد أنه يخفف حدة التوتر ويسهم في بقاء القنوات الدبلوماسية لحل المشاكل، إلا أن مصالح الدول القومية وقضاياها الكبرى لا تتأثر برسائل التعازي

والتضامن. ويمكن التعامل مع العلاقات التركية اليونانية أنموذجا لتعليق هذا التوتر مؤقتا، ولكن تبقى السياسات الخارجية التركية تجاه اليونان حازمة، ما لم تتراجع أثينا عن مزاعمها الباطلة في بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط، وما لم تتخل عن سياسة تسليح جزر إيجة التي تنص المعاهدات على إبقائها منزوعة السلاح وعدم استخدامها لأغراض عسكرية.

تعتبر تركيا في صدارة الدول السباقة في دبلوماسية الكوارث أو الإغاثة وذلك عبر وكالة التنمية والتعاون والتنسيق TIKA والهيئة الخيرية IHH، لتقديم الدعم الطبي والمساعدات الإنسانية للمتضررين في مختلف بؤر التوتر والكوارث بشتى أنواعها، وهو ما أهلها لأن تكون أول بلد متبرع في العالم سنة 2017, عبر تخصيص 0.75% من ناتجها الوطني الإجمالي لتمويل العمليات الإنسانية عبر العالم.

نجحت أنقرة في توظيف بنيتها الطبية القوية في خدمة أهدافها الدبلوماسية عبر مساعدة الدول المتضررة ذات الإمكانيات الصحية المتواضعة، وهو تكشف بشكل أكبر خلال جائحة كورونا، فكانت تركيا على رأس الدول التي قدمت مساعدات طبية وخدمات صحية لعشرات البلدان في شتى دول العالم. وحصدت أنقرة جهودها الدبلوماسية في إدارة الأزمات والكوارث خلال السنوات الماضية عبر أشكال عدة، منها تعزيز نفوذهما وحضورهما الإقليمي والدولي، فضلًا عن تجميل الصورة التقليدية ورسم صور مشرقة جديدة عن البلدين لدى العديد من الدول المستفيدة من هذا النوع من الدبلوماسية. للدبلوماسية وجوه كثيرة، فلم تعد ذلك النشاط التقليدي في علاقات الدول الخارجية، المعروف خطوط بداياته ومسارات النهاية، لكنها أصبحت مظلة كبيرة تضم تحتها العديد من الأدوات، من بينها تقديم العون زمن الكوارث والأزمات، ففي تلك الأثناء تكون الدول المكلومة في أمس الحاجة للدعم والمساعدات الخارجية لعبور مأزقها بسلام وفي أقصر وقت وبأقل الخسائر.

قد تجد الكثير من الدول في تلك الأجواء فرصة سانحة لتعزيز أواصر العلاقات مع تلك البلدان من خلال المبادرات والمساعدات المقدمة، لاسيما الدول التي تعاني من توترات بين الحين والآخر، فربما تصبح تلك الأزمات والكوارث أرضية جيدة للتلاقي على مسرح بعيد نسبيًا عن المسرح السياسي المعقد.

تعد دبلوماسية الكوارث من المصطلحات الحديثة نسبياً، والتي ليس لها تعريف جامع متفق عليه، بقدر ماهي مجال أكاديمي يبحث في آلية تعامل وتأثير الكوارث على العلاقات بين الدول. كما توصف بكونها "دبلوماسية تتحرى كيف ولماذا تؤثر الأنشطة المتعلقة بالكوارث على الصراع والتعاون". ومن ثم فإن دبلوماسية الكوارث معنية بكل أشكال النزاعات مع كل الأطراف وفي جميع الأوقات. ■

زيد عبدالوهاب الأعظمي: باحث من العراق، حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية. خبير في مركز دراسات الشرق الأوسط أورسام.